ابن حمديس

— ١ —

بقلم : الاستاذ عبد الحميد الرحيلي

(١) — منذ مدة تتوق نفسي الى الكتابة عن هـذا الشاعر شاعر الوصف وشاعر الآلام ولعل الرغبة متوغلة في الزمن حيث كنت قبل عدة سنين الى جنب مكتبة المحامي السيد صادق كمونه فاراني نسخة خطية من ديوان هذا الشاعر فعرفته الشاعر المبدع المغموط الحق والمجهول المكانة وقد حاولت بعد اطلاعي على هذه النسخة الخطيه ان اعثر على النسخة المطبوعة في صقلية فلم اوفق لندرتها واخيراً حينما عزمت على الكتابة عنه اتكلت في نقل الصور الشعريه على الاستاذ مصطفى السقاء في بحثه عن هـذا الشاعر على ابن خلكان والاستاذ ضيف في محاضراته وكتابه بلاغة العرب في الاندلس وعلى نفح الطيب وعلى الوافي (١) بالوفيات للصفدي . والذي يظهر لي ان نسخ الديوان المخطوطة والمطبوعة لهذا الشاعر مختلفة اذ له شعر كثير متفرق هنا وهنا وقبل البدء بالموضوع نقول كلمة لابد منها عن صقلية ومحيطها لتعرف اثرها على عقلية هذا الشاعر وعلى خياله ونظرته الفنية وابداعه الشعري .

[٢] — كانت صقلية ولازالت ذات مدن عامرة ورياض زاهيـة وهواء منعش وجمال واعتدال وقـد فتحت على يد اسد بن الفرات في حكم امراء الاغالبة لافريقيا سنة [٢١٩] هـ وقد حكم فيمن حكم من المسلمين هذه الجزيرة الفاطميون وهولاء سلموها لامراء تحت يدهم هم آل باديس وبقيت تحكمها هـذه الاسرة حتى اخرجهم النورمنديون منها مبدأ الحملات الصليبية عام [٤٦٤] هـ [٢] . ومن المحزن جداً ان هذه الجزيرة منذ فتحها اسد بن الفرات حتى سقوطها بيد الافرنج لم تخل من حروب داخلية او خارجية فكانت اذا قرغت من حروب الروم قام للمسلمين بينهم حروب مؤلمة : وقد الم بعض الالمام ابن حمديس بذلك أثناء قصيدة له يتأسف بها على ما حل بصقليه من جراء الحروب الداخلية والخارجية :

ولوان ارضي حرة لابتها بعزم يمد السير ضربة لازب
ولكن ارضي كيف لي بفكاكها من الاسر في ايدي العلوج الغواصب
احين تفاني اهلها طوع فتنة يضرم فيها ناره كل حاطب

وقد اثرت هذه الجزيرة في شاعرية هذا الشاعر لما اتصفت به من الجمال الطبيعي وعذوبة الهواء ووفرة المياه ولطافة الهواء . وقد كان عاشقاً لجمالها وجمال محيطها حتى لم ينسها طيلة حياته ولم تنسه الاندلس التي هاجر اليها هـذه الجزيرة حتى توفي . ولعظمة هذه الجزيرة وبداعتها يقول مؤرخو العرب انها كانت عاصمة الحكومة الرومانية مدة من الزمن وكانت سرير ملك الروم وكانت خير جزيرة في البحر الابيض .

٢ — من هو ابن حمديس وكيف عاش

هو ابو محمد عبد الجبار بن ابي بكر شاعر يماني ازدي تسلسل من عائلة معروفة في افريقيا اشار الى بعض اجداده وزعامته ابن خلدون في تأريخه . ولد هـذا الشاعر في سر قوسة من مدن صقلية عام (٤٤٧) هـ وترعرع هناوقضى شطراً من شبابه باللهو

---

[١] ذكر لابن حمديس شعراً في ترجمة ابن بقية الوزير

[٢] كان سبب خروج العرب من صقلية ان المعز بن باديس ملك صقلية جة والقيروان والذي كانت صقلية تحت حكمه انه اظهر للخليفة الفاطمي الخلاف واخذ يقاوم نحلة الفاطميين في افريقيا بعـد ما كان هو وجميع من قبله من آل باديس خاضعين للفاطميين وحرك العامة فثاروا وذبحوا اتباع الفاطميين في النحلة فوصل الخبر الى الخليفة الفاطمي فغضب وتغير وقام بعمل قاس ضد آل باديس اذ تآمر مع عرب بني هلال وسليم فسلطهم على افريقيا وفتحوا القيروان وطردوا المعز بن باديس منها وتوفي بعد ذلك سنة [٤٥٤] فقام بعده ولده تميم وقبعت هذه الامارة على نفسها في المهدية وليس لها حكم ولا امر وسرح الاعراب في البلاد وخربوا عمارتها حتى هاجر اكثر اهـل القيروان منهـا فطمع الافرنج في اقاليم افريقيـا وحاربوا امراء صقلية من قبل آل باديس وطردوهم ولم يكتفوا بذلك بل اخذوا في مهاجمة سواحل افريقيـا

والانس والطرب وكان جميل الصورة فتاناً في ملاحه تهفو عليه الغانيات ويتعقب خطاهن بمرح وانس . وكان هو لا ينسى تلك الايام العذاب فتفلت منه احياناً بعض ابيات ظريفة اثناء ذكراه لها كما يقول ضمن قصيدة من تلك القصائد التي يتذكر بها صقلية :

كان ذا كله زمان شباب كنت فيه على الدمى بالخيار
هل ترد الايام حسني ومن لي بكمال الهلال بعد السرار

ولما استولى النور منديون على صقلية وازالوا امارة المسلمين عنها لم يرغب ابن حمديس في البقاء هناك مع الباقيين الراضين بحكم الافرنج الذين اذاقوهم من العذاب وكثرة الهوان حتى انغمروا في تلك الموجة الافرنجية فخرج الى الاندلس وحط رحاله في اشبيلية عند ابن عباد ملك العرب وملك الشعر والادب . ولما نكب هذا وذهب به الى سجن اغمات بمراكش تبعه ابن حمديس وسكن هناك قرب ممدوحه . وكان وفياً بذلك فلم تنقطع مراسلاته عنه ومدحه له حتى في سجنه وقد سمع يوما ان المعتمد هذا قال بعض ابيات متبرما من السجن والحياة فكتب له فيما كتب كما نقل ذلك ابن بسام في الذخيرة :

اتيأس من يوم يناقض امسه وشهب الدراري في البروج تدور
ولما رحلتم بالندى في اكفكم وقلقل رضوى منكم وثبير
رفعت لساني بالنيامة قد دنت فهذي الجبال الراسيات تسير

ولما مات ابن عباد عام (٤٨٨) هـ امضى ابن حمديس قسماً من حياته في المهدية من افريقيا . ثم في بجاية من المغرب، وتوفى هناك عام (٥٢٧) هـ وقيل توفى في جزيرة ميورقة . وقد اتصل في افريقيا بامراء آل باديس ومدح جملة منهم كتميم بن المعز وولده يحيي بن تميم وحفيده علي بن يحيى ومدح غيرهم من الامراء ويظهر لنا من الحاج خليفة (المجلد الثاني ص ١٩٦) ان لابن حمديس تأريخاً لمدينة الجزيرة الخضراء من الاندلس وهذا يعني ان ابن حمديس لم يكن مقتصراً على الشعر وانما كان يلم ببعض الامور الاخرى من الفنون . وكان لابن حمديس ولد مثله اديب شاعر بل يفضله بعضهم على ابيه اسمه محمد بن عبد الجبار بن ابي بكر وقد اشار الى ذلك بعض المؤلفين من منتخب المكتبة (١) الصقلية

(١) المكتبة الصقلية هي في تاريخ جزيرة صقلية جمعها ميخائيل اماري الايطالي من [٨٥] كتاباعربياً مبتدئاً بالمسعودي ومنتهياً بحاج خليفة .

القروي والهاشمي

الاصل للشاعر القروي

والتشطير للسيد علي الهاشمي

[عيد البرية عيد المولد النبوي] به الهدى بان والشرك القديم زوي
وانشق ايوان كسرى الفرس حين غدا [في المشرقين له والمغربين دوي]
[عيد النبي بن عبد الله من طلعت] انواره وزهت في حفله السنوي
بشرى لأم القرى في اوجها بزغت [شمس الهداية من قرآنه العلوي]
[بدا من القفر نوراً لاورى وهدى] يهدي لخير صراط في الانام سوي
شتى الحضارات اعجابا به هتفت [يا للتمدن عم الكون من بدوي]
[يا فاتح الارض ميداناً لقوته] ومرغم الشرك في الدعوى وكل غوي
وناشر الأمن في البلدان كيف ترى [صارت بلادك ميداناً لكل قوي]
[يا صاحب السيف لم تفلل مضاربه] يوم الوغى وبه قلب الضلال كوي
قد كان يغري الهوادي وهو ذو صلف [واليوم يندى حياء سيفك الدموي]
[أين اللواء الذي فاق السهى شرفا] وكلما رف جيد الشرك منه لوى
وأين جيش الهدى والنصر يقدمه [اليوم قد طويت اعلامه وطوي]
[يا قوم هذا مسيحي يلبؤكم] ويبتحثكم للنهج الحيوي
مدعوكم للتآخي حين ياشدكم [لاينهض الشرق إلا حبنا الأخوي]
[اذا ذكرتم رسول الله تكرمة] اهدوا اليه تحايا الشاعر القروي
وان اتيتم حماه وهو خير حمى [فبلغوه سلام الشاعر القروي]

واورد له هناك شعراً جيد النمط ؛ وقد اهتم بعض المستعربين من الايطاليين فطبع ديوانه واول من قام بطبع هذا الديوان في بالرم عاصمة صقلية عام [١٨٨٣] م المستعرب اماري . ثم عني بنشره مع اضافات كثيرة في ايطاليا الاستاذ المستعرب كانزوياتاري عن نسختي خزانة روما وخزانة لينينغراد وقد جمع هذه الاضافات الكثيرة من مصادر عديدة كما ذكر ذلك صاحب معجم المطبوعات وكان طبعه عام [١٨٩٧] م

يتبع :

عبد الحميد الرحيلي